الآيتان رقم (١٤٣ و١٤٤)

قال تعالى : ﴿ ثمانيةَ أزواجٍ من الضّأن اثنين ومن المَعْز اثنين . قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين . نبّئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا . فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا ليضلّ النّاس بغير علم . إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين ﴾ .

ثمانية أزواج بدل من حمولة[١] كأنّ معنى الكلام : ومن الأنعام أنشأ ثمانية أزواج[٢] والأزواج جمع الزّوج[٣] ويقال لكلّ واحدٍ من القرينين من الذّكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة زوج ، ولكلّ قرينين فيها وفى غيرها زوج ، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضادًّا زوج[٤] وبشأن الأزواج الثّمانية من الأنعام الذّكر زوج الأنثى ، والأنثى زوج الذّكر ، فهما وإن كانا اثنين فهما زوجان كما قال جلّ ثناؤه : وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، وكما قال : أمسك عليك زوجك[٥] .

وتتحدّث الآية الكريمة الأولى عن الأربعة الأزواج من الضّأن ومن المَعْز . ويغلب على الضّأن بياض اللّون وعلى المعز سواده . وكأنّ فى تقديم الضأن على المعز تنبيهًا إلى زيادة الضّأن على المعز فى المنزلة وذلك على غرار تقديم الإبل على البقر فى المنزلة وفى الحجم أيضًا . وفى أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة المشركين الّذين حرّموا من الأنعام ما شاءوا وأحلّوا ما شاءوا ما هو المبرّر الّذى

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢٥١/٤ وتفسير الطّبريّ ٤٨/٨ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٤٨/٨ . (٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « زوج » ٢١٦ .
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « زوج » ٢١٥ . (٥) تفسير الطّبريّ ٤٨/٨ .

اتّخذوه أساسًا لأحكامهم الّتى ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . ألأنّ الله تعالى حرّم ذكور الضّأن والمعز ؟ ألأنّ الله تعالى حرّم إناث الضّأن والمعز ؟ أم لأنّ الله تعالى حرّم ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضّأن وأنثى المعز من الذّكور والإناث معًا ؟ ولمّا كان ربّ العزّة الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر لم يحرّم شيئًا من الذّكور والإناث فإنّ السّؤال الإنكاريّ المترتّب على هذه الأسئلة الإنكاريّة هو : لم الاختصاص فحرّمتم بعض فئات الصّنف الواحد وأحللتم بعضها الآخر ؟

ولمّا كان الجواب على أيّ سؤالٍ يقتضى العلم وإلاّ كان تخريفًا فإنّ الآية الكريمة فى التّذييل : ﴿ نبّئونى بعلمٍ إن كنتم صادقين ﴾ تطلب من الكافرين الإجابة اعتمادًا على العلم الصّحيح إن كانوا صادقين فى زعمهم أنّ الله تعالى حرّم هذا .

وفى الآية الكريمة الثّانية تتكرّر الأسئلة ذاتها بشأن الإبل والبقر . وإذا كنّا تبيّنّا تقديم الأكبر منزلةً بشأن الضّأن والإبل ، فإنّنا الآن نتحوّل إلى الإبل والبقر الأكبر من الضّأن والمعز منزلةً والأكثر نفعًا . ويتمشّى هذا التّحوّل إلى الأكبر مع التّذييل فى الآيتين الكريمتين . إنّ السّؤال الإنكاريّ فى التّذييل : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ يتجاوز الحال المستحيل فى التّذييل السّابق إلى حالٍ أشدّ إحالةً بأن يكون المشركون المعاصرون لنزول القرآن الكريم كان كلٌّ واحدٍ منهم شهيدا ، هكذا فى صيغة المبالغة والجمع شهداء ، وكان كلّ واحدٍ منهم حيًّا يرزق حينما حرّم الله تعالى تلك الأنعام فى الأزمنة السّحيقة ووصّى كلَّ واحدٍ منهم بذلك التّحريم . إنّ القوم ليس عندهم علمٌ صحيح ، وإنّ القوم لم يكونوا بطبيعة الحال شهداء لأنّ الله تعالى الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر لم يحرّم تلك الأنعام أصلاً فكيف يكون ثمّة علم أو شهود على أمور لم تحدث أساسًا . وما معنى إصرار المشركين على تحريم ما أحلّ الله تعالى ؟ معناه أنّ القوم ظالمون بل أشدّ العباد ظلمًا لأنّهم يكذبون على الله تعالى ويشركون معه جلّ وعلا فى العبادة سواه . لقد بيّنت الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذبًا كهؤلاء المشركين

ليضلّوا النّاس بغير علم ويقودوهم إلى مهاوى الرّدى . وحينما يصرّ الظّالمون على ضلالهم يزيدهم الله تعالى ضلالاً ولا يهديهم : ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا ليضلّ النّاس بغير علم . إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين ﴾ .

وتعيّن الآية الكريمة التّالية ما حرّم الله تعالى أكله من الأنعام فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٤٥)

قال تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرَّمًا على طاعمٍ يطعمه إلاّ أن يكون ميْتَةً أو دمًا مسفوحًا أو لحم خِنْزيرٍ فإنّه رِجْسٌ أو فسقًا أُهِلّ لغير الله به . فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ ربّك غفورٌ رحيم ﴾ .

هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام تفصّل معانيها الآية الكريمة الثّالثة من سورة المائدة . وحينما نتأمّل العناصر بالتّفصيل فى آية سورة المائدة نستطيع أن نعيدها جميعًا على جهة التّقريب إلى العناصر المذكورة هنا .

تتحدّث الآية الكريمة هنا عن الميتة . وكذلك تتحدّث آية سورة المائدة ويدخل فى حكم الميتة المنخنقة ، والموقوذة وهي المقتولة بالضّرب[١] والمتردّية ، وهي الّتى تقع من جبل أو تتردّى فى بئر[٢] والنّطيحة هي الّتى ماتت بسبب نطح غيرها لها[٣] وما أكل السّبع إلاّ ما ذكّينا ، أي ما ذبحنا وفيه روح[٤].

كما تتحدّث الآية الكريمة هنا عن الدّم ولحم الخنزير وكذلك تتحدّث آية سورة المائدة . والمراد بالدّم المسفوح المنصبّ[٥] المهراق[٦] قال قتادة : حرم من الدّماء ما كان مسفوحًا فأمّا اللّحم خالطه الدّم فلا بأس به[٧] قال رسول الله ﷺ : أحلّ لنا

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وقذ » ٥٢٩ .
(٢ و٣) تفسير ابن كثير ١٠/٢ وتفسير القرطبيّ ٢٠٤٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ١١/٢ وتفسير القرطبيّ ٢٠٤٧ و٢٠٤٨ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥١/٨ .
(٦) تفسير ابن كثير ١٨٣/٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٨٤/٢ .

ميتتان ودمان . فأمّا الميتتان فالسّمك والجراد . وأمّا الدّمان فالكبد والطّحال[١] ولحم الخنزير يعمّ جميع أجزائه حتّى الشّحم[٢] .

كما تتحدّث الآية الكريمة عمّا أهلّ لغير الله به وكذلك تتحدّث آية سورة المائدة. والإهلال رفع الصّوت عند رؤية الهلال فى الأساس ثمّ استعمل لكلّ صوت. وبه شُبِّه إهلال الصّبيّ . ومعنى : وما أهلّ لغير الله به ، أي ما ذُكِر عليه غير اسم الله وهو ما كان يُذْبح لأجل الأصنام[٣] ويلحق بما ذكر اسمُ غير الله تعالى عليه عند الذّبح ما ذُبِح على الأنصاب وهي حجارةٌ كانت حول الكعبة تُنْصَب فيُهَلّ عليها ويُذْبَح لغير الله تعالى[٤] .

وتصف الآية الكريمة أكل الميتة والدّم المسفوح ولحم الخنزير بأنّه رجسٌ ، نجسٌ ونَتَن[٥] وتصف أكل ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه عند الذّبح بأنّه فسقٌ وخروج عن طاعته جلّ وعلا[٦] .

وكما استثنت آية المائدة المضطرّ استثنته الآية الكريمة شريطة ألاّ يكون باغيًا متجاوزًا دفع الموت إلى التّلذّذ ، وألاّ يكون معتديًا متجاوزًا دفع الموت إلى ما وراء هذا الحدّ من الشّبع .

ومن ألطف ما يلفت الانتباه فى الآية الكريمة مجىء القول : ﴿ ربّك ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ . وقد عرفنا انفراد السّورة الكريمة وسورة هود بالحظّ الأكبر من هذا القول : ﴿ ربّك ﴾ من بين سائر سور القرآن الكريم .

ولمّا كان بنو إسرائيل أصدقاء كفّار مكّة ومستشاريهم المؤتمنين وكان بنو إسرائيل قد بعث الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام كبير بنى إسرائيل وقد أوحى الله تعالى

(١و٢) تفسير ابن كثير ٢/٧ .
(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « هلل » ٥٤٤ .
(٤) القاموس المحيط : « نصب » وتفسير القرطبيّ ٢٠٥٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٨/٥٣ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فسق » ٣٨٠

إليه بالتّوراة التّى يعتبر الإنجيل الموحى به إلى عيسى عليه السّلام متمّمًا لتعاليمها فقد كان التّحوّل إلى بنى إسرائيل والحديث عنهم فى هذه المسألة وذلك فى .

الآيـــة رقـــم (١٤٦)

قال تعالى : ﴿ وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون ﴾ .

الآية الكريمة تذكّرنا بهذه الآية الكريمة من سورة النّحل التّى تشير بدورها إلى الآية الكريمة من سورة الأنعام . قال تعالى[١] : ﴿ وعلى الّذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ كما تذكّرنا الآية الكريمة بقوله تعالى فى سورة آل عمران[٢] : ﴿ كلّ الطّعام كان حلاًّ لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة . قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ كما تذكّرنا بقوله تعالى فى سورة النّساء[٣] : ﴿ فبظُلْمٍ مِنَ الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّباتٍ أُحِلّتْ لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرًا . وأخذهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال النّاس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا ﴾ .

إنّ عقاب الله تعالى بنى إسرائيل بسبب ظلمهم بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم يذكّرنا برفع الله تعالى الإصر والثّقل عن هذه الأمّة الإسلاميّة وإرادة الله تعالى بها اليسر لا العسر من مظاهر رحمته جلّ وعلا ورأفته بها . وممّا جاء فى هذه المعانى قوله تعالى[٤] : ﴿ لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

---

(١) سورة النّحل ١١٨ . (٢) الآية ٩٣ .
(٣) الآية ١٦٠ و١٦١ . (٤) سورة البقرة ٢٨٦ .

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْرًا كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وقال تعالى[١] : ﴿ يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العُسْر ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ وجاهدوا فى الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدّين مِنْ حرج ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ ورحمتى وسعت كلّ شيءٍ فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون . الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم . فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أُنْزِل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

وبالمقارنة بين هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عمّا حرّم الله تعالى على بنى إسرائيل من الطّيّبات بسبب ظلمهم وبين الآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن الخبائث الّتى حرّمها الله تعالى على أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ خير أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تتبيّن رحمة الله تعالى الّتى وسعت هذه الأمّة المسلمة . ويكفى دليلاً على هذه الرّحمة أنّ الأمّة المسلمة حرّم الله تعالى عليها الخبائث شرعًا وعقلاً فى حين حرّم الله تعالى على بنى إسرائيل بعض الطّيّبات إضافةً إلى الخبائث . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على اليهود من الأنعام والطّير كلَّ ذى ظُفُر وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع[٤] وليس بمنفرجها[٥] كالإبل والنّعام والإوَزّ والبطّ وحمار الوحش والدّيك والحيتان[٦] أمّا الدّجاج والعصافير فتأكلها اليهود لأنّها قد فُرِجَتْ[٧] .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ . (٢) سورة الحجّ ٧٨ .
(٣) سورة الأعراف ١٥٦ و١٥٧ . (٤و٥) تفسير الطّبريّ ٥٤/٨ .
(٦) انظر تفسير الطّبريّ ٥٤/٨ وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر على الدّيك فى طبعة دار المعارف ١٩٨/١٢ . (٧) تفسير الطّبريّ ٥٤/٨ .

والظّفر يقال فى الإنسان وفى غيره . قال : كلّ ذى ظفر ، أي ذى مخالب . ويعبَّر عن السّلاح به تشبيهًا بظُفُر الطّائر إذ هوله بمنزلة السّلاح[1] وإنّما شمل الظُّفُر خفّ الجمل لأنّ الخفّ سلاح البعير فى الدّفاع عن نفسه . وإنّ من ألطف ما لفت الانتباه بشأن الجمل الكبير الحجم أنّه ، بعون الله تعالى ، استطاع أن يبقى دون الحيوانات الأخرى الكبيرة الحجم كالديناصور ، وأنّه استطاع أن يخيف الحيوانات المفترسة بحجمه وأن يدفع عن نفسه بخفّه . وإنّ من ألطف ما نتذكّر فى الوجهة ذاتها بهذه المناسبة لفظة الصّياصى الّتى استعملتها الآية الكريمة السّادسة والعشرون من سورة الأحزاب بمعنى الحصون . قال تعالى : ﴿ وأنزل الّذين ظاهروهم مِنْ أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقًا تقتُلون وتأسِرون فريقًا ﴾ لقد بيّن أمير البيان العربيّ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الحيوان[2] فى أجمل عبارة وأروع بيان تطوّر دلالة لفظة الصّياصى والمفرد صِيصِيَة فقرّر أنّها أساسًا تدلّ على الشّوكة فى رِجل الدّيك . وبسبب مهارته فى الطّعن بها والدّفاع عن نفسه أطلقت على قرن الثّور الّذى سمّي صِيصية ، ثمّ سمّيت الآطام صياصى على نحو ما جاء فى آية سورة الأحزاب . والآطام جمع أطم بضمّ وبضمّتين ، وهو نوعٌ من الحصون أو الأبنية العسكريّة يُبْنَى من حجارةٍ صغيرةِ الحجم ويُحْشى بينها بالطّين ، فى حين تبنى الحصون من حجارة كبيرة الحجم ولا حشو بينها هذا إلى كون شكل الحصن مربّعًا كما تبيّن من المشاهدة الشّخصيّة لآثار المدينة المنوّرة . وأخيرًا سمّيت شوكة الحائك صيصية لأنّها مانعةٌ من فساد الغَزْل ولأنّها فى يده كالسّلاح .

وكما حرّم الله سبحانه وتعالى على اليهود من الأنعام والطّير كلّ ذى ظفرٍ حرّم عليهم من البقر والغنم أكل شحومهما باستثناء ما حملت ظهورهما وعلق بها من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ظفر » ٣١٤

(٢) ٢/٢٣٤ و٢٣٥ وانظر دراستنا لآية سورة الأحزاب فى كتابنا تأمّلات فى سورة الأحزاب ٢٢٤ - ٢٢٦ .

الشّحم ، وما حملت الحوايا وهي ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار وهي بنات اللّبن وهي المباعر وتسمّى المرابض وفيها الأمعاء[١] وباستثناء ما اختلط من الشّحم بعظم كشحم الأَلْية والجنب وما أشبه ذلك[٢] .

وبشأن شحوم البقر والغنم المحرّمة على اليهود قال السّدّيّ فى تفسيرها : يَعْنى الثَّرْب ــ وهو شحمٌ قد غَشِيَ الكَرِش والأمعاء رقيق ــ وشحم الكُلْيتين[٣] .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ ذلك التّحريم كان بسبب بغي اليهود . وفى القول : ﴿ وإنّا لصادقون ﴾ تبيّن أنّ هذا هو القصص الحقّ والنّبأ الصّدق ، وكأنّ الآية الكريمة تفيد ما يفيده قوله عزّ من قائل فى سورة آل عمران[٤] : ﴿ كلّ الطّعام كان حِلاً لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزّل التّوراة . قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فألئك هم الظّالمون ﴾ .

ولمّا كانت طبيعة كافرى العرب ويهود تكذيب المصطفى ﷺ وكان فى آيات القسم الكثير من مظاهر رحمة الله تعالى وعذابه فإنّ آخر آيات القسم تومئ إلى هذه المعانى فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٤٧)

قال تعالى : ﴿ فإن كذّبوك فقل ربّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين ﴾ .

ومِنْ أهمّ ما يلاحظ على الآية الكريمة مجىء لفظ الرّبّ مع الرّحمة الواسعة فى القول : ﴿ فقل ربّكم ذو رحمةٍ واسعة ﴾ وبذلك تتأكّد تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ، فى حين يجىء الضّمير العائد إلى ربّ العالمين بشأن البأس والقسوة والعذاب فى حقّ المجرمين الكافرين .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٥٥ . (٢) تفسير الطّبريّ ٨/٥٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٨٥ وتفسير الطّبريّ ٨/٥٥ . (٤) الآية ٩٣ و٩٤ .

[١٧]

« المشركون يتّبعون الظّنّ ولله الحجّة البالغة وبيان ما حرّم الله علينا وأمرنا باتّباعه واجتنابه »

الآيــات (١٤٨ ـ ١٥٣)

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ
لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ
قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ
فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ
يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ
مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلۡ
تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ
شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ
إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ
وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا
وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ
ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

فى مجال إنباء القرآن الكريم بالغيب يقرّر السّياق زعم المشركين أنّ إشراكهم مع الله تعالى سواه وتحريمهم ما أحلّ الله تعالى كانا بمشيئة الله تعالى وإلاّ لمنعهم جلّ وعلا من هذا وذاك ومنع آباءهم . ويبيّن القرآن الكريم حقيقة القوم وهي أنّهم كذّبوا ثمّ كذبوا وأنّ مصيرهم كمصير السّابقين أمثالهم بأن يذوقوا عذاب الله تعالى إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يسأل القوم عن العلم الّذى اعتمدوه فى زعمهم هذا وسيتبيّن أنّ القوم ليس عندهم سوى الظّنّ الّذى يتّبعونه والّذى لا يغنى من الحقّ شيئًا وأنّ القوم كاذبون . ويقرّر السّياق البديل الصّحيح وهو حجّة الله تعالى البالغة المتمثّلة فى القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ ويبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لهدانا أجمعين بأن يشرح صدور النّاس جميعًا لدين الإسلام . إنّ الله سبحانه وتعالى يهدى إلى سبيله ذلك الإنسان الّذى يجاهد فيه جلّ وعلا بأن يستعمل عقله استعمالاً صحيحًا فى تدبّر آيات الله تعالى ويحرص على البحث عن الحقّ واعتناقه أمّا الّذى يُعْرِض عن الحقّ ويصدّ غيره عنه فإنّ الله سبحانه وتعالى يزيده ضلالاً إلى ضلاله . وإذا لم يكن لدى المشركين علمٌ صحيحٌ فهل عندهم شهداء يشهدون أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى حرّم ما حرّموا . وكيف يكون ثمّة شهود إذا كان ربّ العزّة لم يحرّم ذلك اصلاً ! وفى حالة وجود الشّهود فذلك معناه أنّهم يدلون بشهادة الزّور ، وهنا يأمر السّياق المصطفى ﷺ ألاّ يشهد مع المدلين بشهادة الزّور ، وألاّ يتّبع أهواء الّذين كذّبوا بآيات القرآن الكريم ، والّذين لا يؤمنون بالآخرة ، والّذين يشركون مع الله تعالى سواه ويجعلون له أندادا . وفى ثلاثٍ من آيات الحكمة يقصّ ربّ العالمين بالحقّ وبالصّدق ما حرّم علينا . واللّطيف فى الأمر أنّ ثمّة مجموعةً من النّواهى المحرّمة علينا ومجموعةً من الأوامر المكلّفين بها والمحرّم علينا ما يقابلها . وهذه الأوامر والنّواهى تتعلّق بالعقيدة

فى المقام الأوّل ، فثمّة نهيٌ عن الإشراك مع الله تعالى سواه ، والأمر بالوفاء بعهد الله تعالى ، وباتّباع صراط الله تعالى المستقيم والنّهي عن اتّباع سبل الشّيطان المتفرّقة . كما تتعلّق الأوامر والنّواهى بالسّلوك وبالمعاملة فثمّة أمرٌ بالإحسان إلى الوالدين ، وبإيفاء الكيل والوزن ، وبقول العدل فى كلّ الأحوال . وثمّة نهيٌ عن قتل الأولاد بسبب الفقر فالله سبحانه وتعالى رازق كلّ دابّة ، ونهيٌ عن مجرد القرب من الفواحش الظّاهرة والباطنة ، وعن قتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحق ، وعن مجرّد القرب من مال اليتيم إلاّ بالّتى هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه ، وبشأن هذه الوصايا يُرْبَط بعضها بالعقل لشدّة الحاجة إليه فى تدبّرها ، ويربط بعضها الآخر بالقلب لشدّة تفاعله معها . فإذا كانت الوصيّة متعلّقةً باتّباع سبيل الله تعالى المستقيمة كان ثمّة الضّرب على وتر التّقوى الّتى هي الثّمرة اليانعة والحصيلة النّهائيّة لعمل العقل والقلب السّليمين . وإنّ من أقوى الأدلّة على أنّ المراد بالصّراط المستقيم القرآن الكريم فى المقام الأوّل فى القول : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيمًا فاتّبعوه ﴾ هو الأمر باتّباع القرآن الكريم فى الآية الكريمة فى القسم التّالى: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم تُرْحمون ﴾ ووراء ذلك يظلّ دين الإسلام الّذى بعث الله به محمّدًا ﷺ هو الصّراط المستقيم أوّلاً وأخيرًا . وقد جاء فى الآية الكريمة الحادية والسّتّين بعد المائة من هذه السّورة الكريمة خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ قُلْ إنّنى هدانى ربّى إلى صراطٍ مستقيمٍ دينًا قِيَمًا ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ .

الآيـــة رقـــم (١٤٨)

قال تعالى : ﴿ سيقول الّذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء . كذلك كذّب الّذين من قبلهم حتّى ذاقوا باسنا . قل هل عندكم مِنْ علمٍ فتخرجوه لنا إن تتّبعون إلاّ الظّنّ وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾ .

من المعروف أنّ الهدى على ضربين فى حقّ المكلّف ، الهدى بمعنى الدّلالة ، وهي مهمّة الرّسل والنّبيّين ابتداءً ، الدّعاة إلى الله تعالى تبعًا . والهدى بمعنى الهداية وهي لله تعالى وحده لا شريك له فمن شاء الله تعالى له الهداية هداه ومن شاء له الضّلالة أضلّه . وينبغى أن نبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليعذّب حتّى يبعث رسولاً ، وبهذا تكون الهداية بمعنى الدّلالة قد تحقّقت ، وهنا تأتى مسئوليّة كلّ إنسانٍ عن الموقف الّذى يتّخذه من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . وإنّ الموقف الّذى سيقفه الإنسان من دعوته إلى الله تعالى بالإسلام أو الكفر قد سبق علم الله تعالى إليه . وإنّ الإنسان الّذى يجاهد فى الله تعالى ويخلص فى البحث عن الحق يهديه جلّ وعلا سبله والطّرق إلى الجنّة ، ويدخل هذا الإنسان ضمن الذين يهديهم الله تعالى بفضله إن شاء . وإنّ الإنسان الّذى يعرض عن دعوة الحقّ ويصدّ عن سبيل الله تعالى يزيده الله تعالى ضلالاً إلى ضلاله . ويدخل هذا الإنسان ضمن الّذين يضلّهم الله تعالى بعدله إن شاء . وهكذا تكون مسئوليّة الإنسان كاملةً تجاه موقفه من هدى الدّلالة والإرشاد ، وهذا الموقف قد سبق علم الله تعالى إليه . وهذا العلم السّابق هو الّذى يعبّر عنه بمثل قوله عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ .

إنّ المشركين يخلون أنفسهم من المسئوليّة فيزعمون أنّ شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحلّ الله تعالى كان بعلمٍ من الله تعالى وإذنٍ ورضا لأنّه جلّ وعلا لو لم يشأ ضلالنا لهدانا ! جاء فى سورة الأعراف[2] القول : ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا

---

(١) الآية ٣٩ .

(٢) الآية ٢٨ .

وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى كذب هؤلاء المشركين وتقرّر بعد ذلك حقيقة موقف القوم وعقابهم وذلك فى القول : ﴿ كذلك كذّب الّذين من قبلهم حتّى ذاقوا بأسنا ﴾ وإنّ لسان حال الجزئيّة الكريمة يقول : إنّ مصير المشركين سيكون العذاب الشّديد الأليم على غرار المشركين السّابقين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا .

وتأكيدًا لكذب القوم تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يسأل القوم عن العلم الّذى اعتمدوه دليلاً على رضا الله تعالى عن شركهم وتحريمهم ما أحلّ الله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا ﴾ إنّ القوم ليس لديهم سوى الظّنّ الّذى يتّبعونه والّذى لا يغنى من الحقّ شيئًا ، وإنّ القوم يكذبون دائمًا وليس عندهم سوى الكذب والخرص : ﴿ إن تتّبعون إلاّ الظّنّ وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾.

إنّ القوم ليس عندهم علمٌ ، وإنّ القوم عندهم الظّنّ والكذب . وفى المقابل عند الله تعالى الحجّة البالغة الّتى تهدى القوم الأسوياء إلى الصّراط المستقيم وإلى هذا المعنى أومأت .

الآيـــة رقـــم (١٤٩)

قال تعالى : ﴿ قل فللّه الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى أرسل خاتم رسله وأنزل عليه القرآن الكريم الّذى يهدى إلى الطّريقة الّتى هي أقوم وبيّنت سنّته ﷺ معاني الكتاب العزيز ثمّ كان للنّاس موقفان مختلفان من كلّ هذه النّعم . الموقف الأوّل من قِبَل المهتدين الّذين آمنوا واهتدوا فزادهم الله تعالى هدًى إلى هداهم . والموقف الآخر مِنْ قِبَل الضّالّين الّذين كفروا وضلّوا وأضلّوا فزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم . لقد عبّرت الآية الكريمة

عن حكمة الله تعالى التّامّة وحجّته البالغة فى القول : ﴿ قل فللّه الحجّة البالغة ﴾ كما عبّرت الآية الكريمة عن مسئوليّة كلٍّ من الفريقين الّذين زادهم الله تعالى هدًى والّذين زادهم الله تعالى ضلالاً فى القول : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

ولمّا كانت الأمور المصيريّة والأحكام الخطيرة تقتضى البيّنة أو الشّهود فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى الشّهادة فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٠)

قال تعالى : ﴿ قل هلمّ شهداءَكم الّذين يشهدون أنّ الله حرّم هـذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتّبع أهواء الّذين كذّبوا بآياتنا والّذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربّهم يعدلون ﴾ .

بشأن تحريم الأنعام جاء فى القِسم السّابق القول[١] : ﴿ نبّئونى بعلمٍ إن كنتم صادقين ﴾ وفى هذا القسم جاء فى الآية الكريمة السّابقة القول : ﴿ هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا ﴾ وليس لدى القوم علمٌ لكن الظّنّ والكذب . كما جاء بشأن تحريم الأنعام فى القسم السّابق القول[٢] : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتعلّق بالشّهادة . إنّ الآية الكريمة الّتى تبدأ كسابقتها بجملة : ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ تأمره عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للمشركين الّذين حرّموا ما شاءوا من الزّرع والضّرع بإيحاءٍ من شياطين الجنّ والإنس : هاتوا شهداءكم[٣] وأحضروا[٤] أولئك الّذين يشهدون أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى حرّم ما حرّمتم وأنّكم متّبعون لا مبتدعون . ولمّا كان هذا التّحريم لم يقع أصلاً من ربّ العزّة فإنّ كلّ مَنْ يأتى به المشركون للشّهادة إنّما يدلى بشهادة زور . وهنا تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ألاّ يشهد مع أولئك المدلين بشهادة

---

(١) الآية ١٤٣ .
(٢) الآية ١٤٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥٩/٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢

الزّور وألاّ يتّبع أهواء الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى . وفى المقابل عليه ﷺ أن يتّبع العلم الذى جاءه من ربّه جلّ وعلا ، وألاّ يتّبع أهواء الّذين لا يؤمنون بالآخرة والّذين هم بربّهم يعدلون فيجعلون الأصنام له عِدلاً[1] ويتّخذونها له ندًّا[2] وإنّ النّهي عن الشّهادة يذكّرنا بالآية الكريمة التّاسعة عشرة من السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ قل أيّ شيءٍ أكبر شهادة . قل الله شهيدٌ بينى وبينكم . وأوحي إليّ هذا القرآن لا نذركم به ومَنْ بَلَغ . أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى قل لا أشهد. قل إنّما هو إلهٌ واحدٌ وإنّنى برىءٌ ممّا تشركون ﴾ وإنّ جعل المشركين الأصنام عدلاً للذّات العليّة فى العبادة يذكّرنا بالآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة . قال تعالى: ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماواتِ والأرضَ وجعل الظّلمات والنّور . ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدِلون ﴾ .

وإنّ الحديث فى الحرام منطلق الحديث فى الآيات الكريمات التّاليات عن مجموعةٍ من الأوامر والنّواهى غير **القابلة للنّسخ فى سائر الشّرائع وهذه هي** .

الآيـــة رقـــم (١٥١)

قال تعالى : ﴿ قل تعالَوْا **أتْلُ ما حرّم ربّكم عليكم ألاّ** تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتلوا أولادكم **مِنْ إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم** ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ . ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المشركين الّذين حرّموا ما أحلّ الله تعالى وأحلّوا ما حرّم الله تعالى ببواعث من شياطين الجنّ والإنس والنّفوس

---

(١) جاء في القاموس : « عدل » : « وعَدَله يَعْدله وعادله وازنه . وفى المَحْمِل ركب معه . والعَدْل المِثْل والنظير كالعِدل والعديل .... وعديلك معادلك »

(٢) تفسير الطّبريّ ٨/ ٦٠ .

الأمّارات بالسّوء : ﴿ تعالَوْا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ﴾ ومع أنّ معنى ﴿ تعالَوْا ﴾ ببساطة : هلمّوا وأقبلوا[١] فإنّ معنى : ﴿ تعالوا ﴾ فى الأساس دعوة الإنسان إلى الارتقاء إلى مكانٍ مرتفع ثمّ جُعِل للدّعاء إلى كلّ مكان . قال بعضهم : أصله من العلوّ وهو ارتفاع المنزلة ، فكأنّه دعا إلى ما فيه رفعة ، كقولك : افعل كذا غَيْرَ صاغر ، تشريفاً للمقول له[٢] إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ تعالوا ﴾ ولا نستطيع أن نقول بأكثر من أننّا بصدد درسٍ قرآنيّ تطبيقيّ لمعنى مثل قوله عزّ من قائل[٣] : ﴿ اُدْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هي أحسن . إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيل وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

ومع أنّ منطلق الحديث عن الأحكام الزّرع والضّرع اللّذان تعامل المشركون معهما بغير أحكام الله تعالى فإنّ الأحكام فى الآية الكريمة وفى الآيتين الكريمتين التّاليتين شاملة . وبشأن هذه الآية الكريمة نحن بصدد ما يلى من الأحكام . النّهي عن الإشراك مع الله تعالى سواه ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، والنّهي عن قتل الأولاد من إملاق ، والنّهي عن القرب من الفواحش . والفواحش جمع الفاحشة . والفُحْش والفحشاء والفاحشة : ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والأقوال[٤] والنّهي عن قتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ .

وأوّل ما يلفت النّظر ابتداءُ الأحكام بحقّ الله تعالى وبما له علاقةٌ بالهدف الّذى خلق الله تعالى النّاس مِنْ أجله وهو إفراده جلّ وعلا بالعبادة . أمّا هذا الحكم فهو النهي عن الشّرك وعن ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا فى العبادة سواه . والحكم ينهى عن إشراك أيّ شيءٍ مع الله تعالى فى العبادة من مَلَكٍ مقرّب ، أو نبيٍّ مرسل ، أو إنسانٍ أو حيوان أو نبات أو جماد . قال

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨٧/٢ .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « علا » ٣٤٦ .
(٣) سورة النّحل ١٢٥ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فحش » ٣٧٣ .

تعالى : ﴿ قل تعالَوْا أَتْلُ ما حرَم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئا ﴾ والمعنى : قل يا محمّد للمشركين ابتداءً وللنّاس جميعًا تعالوا أقصّ عليكم ما حرّم ربّكم جلّ وعلا عليكم ألاّ تشركوا به شيئًا . وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذى يجىء هنا والّذى يرتبط أساسًا بتربيّة الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء والّذى يُسْتَعْمَلُ فى مواطن الخصوص وفى مواقف العطف والحنان . إنّ الّذى يحرّم الشّرك عليكم هو مربّيكم بنعمه وآلائه المحبّ لكم الرّءوف بكم ، العطوف عليكم ، وإنّ واجبكم أن تتدبّروا الأحكام جيّدًا، وأن تبادلوا الإحسان بالإحسان .

وبعد النّهي عن الشّرك يأتى الأمر ببرّ الوالدين : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ والمعنى: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أي أن تحسنوا إليهم[1] وممّا يلفت النّظر بشأن هذا القول : ﴿ وبالوالدين إحسانًا ﴾ أنّه الأمر الوحيد فى الآية الكريمة من بين مجموعة النّواهى . وإذا كنّا نتبيّن من الحديث عمّا يتعلّق بالذّات العليّة ثمّ عمّا يتعلّق بالوالدين منزلة الوالدين الرّفيعة فى الإسلام ، فما أكثر المواضع فى القرآن الكريم الّتى تمّ فيها التّحوّل من الأمر بتوحيد الله تعالى أو النّهي عن الشّرك إلى الأمر ببرّ الوالدين أي إلى النّهي عن عقوق الوالدين ، فإنّ فى التّحوّل من النّهي إلى الأمر ممّا يوقظ الانتباه ويشدّ الاهتمام . ويصحّ أن نفهم من التّحوّل من النّهي إلى الأمر التّنبيه إلى الفصل الّذى ينبغى أن يكون حاسمًا بين مقام الرّبوبيّة وبين مقام العبوديّة وإن كان هؤلاء العباد هم الآباء والأمّهات . ويصحّ أن نفهم من الأمر فى القرآن الكريم بالإحسان إلى الوالدين دون أن يأتي فى هذا المعنى نهيٌ واحدٌ أنّ عقوق الوالدين بسبب فظاعته وبسبب إمكان تحاشى الأبناء له بعونٍ من الله تعالى وفضل حتّى فى حقّ الوالدين المشركين هو ممّا لا يستحبّ التّصريح بذكره فضلاً عن تورّط الأبناء فى شنيع قبحه . والإحسان إلى الوالدين برّهما . ومن هنا يقال برّ الوالدين والإحسان إليهما ضدّ عقوقهما . وبسبب العلاقة اللّغويّة بين البرّ بكسر الباء وبين

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢/١٨٨ .

البرّ بفتح الباء خلاف البحر ، وبسبب تصوّر التّوسّع فى البَرّ اشتقّ منه البِرّ أي التّوسّع فى فعل الخير[١] .

وبعد الحديث عن عباد الله تعالى من زاوية أَوْلى النّاس بالبِرّ والإحسان والذّكر وهما الأبوان ويلحق بهما من علاهما يأتى الحديث عن أَوْلى النّاس بالبرّ بعد الأبوين ومن علاهما ، أعنى الأولاد . ولمّا كان الحديث ينطلق من زاوية الأوامر والنّواهى وكان الأبناء يتعرّضون من أهل الجاهليّة لأبشع أنواع القسوة والظّلم إلى حدّ قتل الأولاد والبنات بسبب الفقر العاجل أو الآجل ، الواقع فعلاً أو المتوقّع مستقبلاً ، وإلى حدّ وأد البنات خوف العار ، ولمّا كان قتل الأولاد خوف الفقر أكثر من وأد البنات فقد كان فى الآية الكريمة نهيٌ عن قتل الأولاد خوف الفقر . قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ ولمّا كان الحديث عن قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل فعلاً كان ثمّة تنبيه إلى هذا الفقر الحاصل فعلاً وذلك فى القول : ﴿ مِنْ إملاق ﴾ والإملاق مصدر من قول القائل : أملقت من الزّاد فأنا أملق إملاقًا وذلك إذا فني زاده وذهب ماله وأفلس[٢] كما كان ثمّة تقديمٌ للآباء فى الذّكر وتأخيرٌ للأولاد وذلك فى القول : ﴿ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ بقصد معالجة مصيبة قتل الأولاد عن طريق طرد الفقر الحاصل فعلاً بالتّنبيه إلى أنّ الله تعالى قد تكفّل برزق كلّ دابّةٍ فى الأرض ابتداءً بالآباء ومرورًا بالأولاد . وتبدو حكمة المعالجة الفوريّة للفقر الحاصل أو العاجل بتقديم رزق الآباء فى الذّكر حينما نتحوّل إلى الموضع الآخر فى القرآن الّذى تتمّ فيه معالجة الفقر الآجل أو المتوهّم وذلك فى قوله عزّ من قائل فى سورة الإسراء[٣] : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم ﴾ إنّ معالجة الفقر الآجل أو المتوهّم كانت بتطمين الآباء إلى أنّ الله تعالى تكفّل برزق الأبناء كما تكفّل برزق الآباء على السّواء .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بر » ٤٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨/٦٠ .

(٣) الآية ٣١ .

وكما شمل الحديث عن الآباء من علا شمل الحديث عن الأبناء من سفل من الأحفاد ومن إليهم .

ولمّا كان النّهي عن قتل الأولاد منطلق الحديث عنهم فإنّا نستطيع أن نتبيّن النّهي عن القتل فى الحكمين اللّاحقين ، بطريقٍ غير مباشرٍ فى حقّ أحدهما وبطريقٍ مباشرٍ فى حقّ آخرهما وذلك فى القول : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ ﴾ إنّ الفواحش جمع الفاحشة مع أنّها بمعنى ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والأقوال ، فذلك هو معنى الفُحْش والفحشاء والفاحشة[1] فإنّ ذكر الفواحش بين قتل الأولاد وقتل النّفس الإنسانيّة يعنى أنّ النّهي عن ارتكاب جريمة الزّنى من أهمّ أهداف النّهي عن الفواحش . لقد جاء عن يوسف عليه السّلام العبد المُخْلَص لله تعالى قولُ الحقّ جلّ وعلا فى سورة يوسف[2] : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه . كذلك لِنَصْرِفَ عنه السّوء والفحشاء . إنّه من عبادنا المُخْلَصين ﴾ والفحشاء بمعنى الزّنى . ومِنْ ألطف الأدلّة على أنّ الزّنى نوعٌ من القتل للنّفس الإنسانيّة لأنّه قتلٌ للنّطفة بوضعها فى غير موضعها ، ولأنّه قتلٌ للمولود معنويًّا إن كتبت له الحياة ، وقتلٌ حسّيٌّ له بسبب التّخلّص فى العادة من الحمل سفاحًا عن طريق الإجهاض ، من ألطف الأدلّة جمع آيات الحكمة من سورة الإسراء بين هذه الأنواع من القتل وذلك على غرار آية سورة الأنعام ووفق النّسق ذاته . قال تعالى[3]: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإيّاكم . إنّ قتلهم كان خِطْئًا كبيرًا . ولا تقربوا الزّنى إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ . ومَنْ قُتِلَ مظلومًا فقد جعلنا لوليّه سلطانًا فلا يُسْرِف فى القتل إنّه كان منصورا ﴾ ومن ألطف ما ينبغى الإشارة إليه والتّنويه به أنّ آيات الحكمة

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فحش » ٣٧٣ . (٢) الآية ٢٤ .

(٣) سورة الإسراء ٣١ ــ ٣٣ .

من سورة الإسراء وآيات الأحكام هذه من سورة الأنعام غير قابلةٍ للنّسخ فى سائر الشّرائع .

ولّما كانت قضايا التّوحيد وبرّ الوالدين والأبناء وإحياء النّفس الإنسانيّة من الضّخامة إلى الحدّ الّذى ينبغى معه استعمال العقل استعمالاً صحيحًا جاء القول فى ختام الآية الكريمة : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون ﴾ .

ورد فى الصّحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله ﷺ أيّ الذّنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . ثمّ تلا رسول الله ﷺ : ﴿ والّذين لا يدعون مع الله إلـٰهًا آخر ولا يقتلون النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ ولا يزنون ﴾ . الآية[1] وجاء فى الصّحيحين عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّى رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث ، الثّيّب الزّانى ، والنّفس بالنّفس ، والتّارك لدينه المفارق للجماعة[2] .

عن ابن عبّاس قال : هنّ الآيات المحكمات قوله : قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئا[3] .

وهكذا يتبيّن عناية الآية الكريمة بجانب العقيدة فى القول : ﴿ ألاّ تشركوا به شيئًا ﴾ وبجانب النّفس الإنسانيّة الّتى ينبغى أن تحيا الحياة الكريمة وأن تصان من كلّ أذى ، فلا مجال لعقوق الوالدين بل لبرّهما والإحسان إليهما ولهذا جاء الأمر بالإحسان إليها وليس النّهي عن عقوقهما ، ولا مجال لقتل الأولاد بطريقٍ مباشرٍ خوف الفقر وبطريقٍ غير مباشرٍ عن طريق الزّنى ، ولا مجال لقتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى إلاّ بالحقّ . واللّطيف فى الأمر أنّ الثّلاثة الّذين أحلّ الإسلام دماءهم يتعلّق

---

(١) تفسير ابن كثير ١٨٨/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٨٩/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٦٤/٨ .

كلّ واحدٍ منهم بإحدى القضايا الثّلاث الرّئيسية فى الآية الكريمة . إنّ قتل التّارك لدينه المفارق للجماعة يشمله القول : ﴿ ألاّ تشركوا به شيئا ﴾ وإنّ قتل النّفس بالنّفس يشمله القول : ﴿ ولا تقتلوا النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ ﴾ وإنّ قتل الثّيّب الزّانى بمعنى المحصَن والمتزوّج يشمله القول : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ والمعروف أنّ الزّنى يكون سِفاحًا أي علنًا ويكون سرًّا باتّخاذ الأخدان . وعن هذين النّوعين من الزّنى جاء النّهي فى قوله عزّ من قائل فى سورة النّساء[1] : ﴿ فانكحوهنّ بإذن أهلهنّ وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصّناتٍ غير مسافحاتٍ ولا متّخذات أخدان ﴾ محصنات بمعنى عفيفات . ومسافحات بمعنى زانياتٍ جهرًا ، والأخدان الأخلاّء يزنون بهنّ سرًّا[2] .

وإنّ ذكر الفواحش فى القول : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ وإنّ كون الفاحشة مفرد الفواحش والفحشاء بمعنًى واحد وهو ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والأقوال كما تبيّن من ذى قبل يذكّرنا بدور الصّلاة فى النّهي عن الفحشاء والمنكر على نحو ما بيّنت هذه الآية الكريمة من سورة العنكبوت[3] قال تعالى : ﴿ اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصّلاة . إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر . والله يعلم ما تصنعون ﴾ وكأنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأنعام تشير إلى الصّلاة ودورها فى النّهي عن الفحشاء وكأنّها تأمر بإقام الصّلاة الّتى هي الدّليل العمليّ على صحّة العقيدة تأكيدًا لمعنى القول : ﴿ ألا تشركوا به شيئًا ﴾ من ناحية والنّهي عن الفحشاء والمنكر ممّا فصلت الآية الكريمة بعد ذلك من ناحيةٍ أخرى . ولمّا كانت الصّلاة والزّكاة قد جمع القرآن الكريم بينهما فيما يزيد على الثّمانين موضعًا بسبب التّكامل بينهما وكون الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين فى مجال العبادة وكون الزّكاة أهمّ أركان الإسلام فى مجال المال . فهل نتبيّن فى آيات الأحكام من سورة الأنعام مثل هذا

---

(١) الآية ٢٥ . (٢) انظر مثلاً الجلالين . (٣) الآية ٤٥ .

الرّباط بين أثر الصّلاة وأثر الزّكاة ؟ إنّ الجواب بالإيجاب فللآية الكريمة التّالية علاقةٌ بالمال وبالعقيدة أيضًا وذلك على غرار علاقة هذه الآية الكريمة بالعقيدة وبالصّلاة فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٢)

قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالّتى هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه وأوفوا الكَيْلَ والميزان بالقِسْط لا نُكَلِّف نفسًا إلاّ وُسْعَها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون ﴾ .

من البيّن أنّ صدر الآية الكريمة يتعلّق بالمال ، فثمّة نهيٌ للوصيّ فى المقام الأوّل عن الاقتراب من مال اليتيم إلاّ بالطّريقة الّتى هي أحسن ، وأمرٌ بإيفاء الكيل والوزن بالعدل . ونستطيع أن نفهم أنّ الّذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة هم بإذن الله تعالى أكثر النّاس استمساكًا بهذه التّعاليم السّماويّة لأنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولأنّ الزّكاة لا تكون إلاّ من المال الطّيّب لأنّ الله تعالى طيّبٌ ولا يقبل إلاّ طيّبًا . وبشأن دور الصّدقات فى تطهير باذليها من دنس ذنوبهم وتزكيتهم ورفعهم إلى منازل أهل الإخلاص ، ومن باب أولى الزّكاة ، نستذكر قول الحقّ جلّ وعلا خطابًا للمصطفى ﷺ فى سورة التّوبة[1] : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكنٌ لهم . والله سميعٌ عليم ﴾ والصّلاة من المصطفى ﷺ ههنا بمعنى الدّعاء والاستغفار[2] .

إنّ الآية الكريمة تنهى عن مجرّد القرب من مال اليتيم إلاّ بالّتى هي أحسن حتّى يبلغ أشدّه يعنى حتّى يحتلم[3] : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالّتى هي أحسن حتّى

---

(١) الآية ١٠٣ .

(٢) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٣٨٦/٢ وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٥٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٨٩/٢ .

يبلغ أشدّه ﴾ وبشأن القرب من مال اليتيم بالطّريقة الّتى هي أحسن نستذكر قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة البقرة[١] : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير . وإن تخالطوهم فإخوانكم . والله يعلم المفسد من المصلح . ولو شاء الله لأعنتكم . إنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ وبشأن معنى الأَشُدّ فى الآية الكريمة نستذكر قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء[٢] : ﴿ وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النّكاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يَكْبَرُوا . ومَنْ كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ . وبشأن الأشدّ جاء فى المفردات[٣] : « الشَّدّ العَقْد القويّ . يقال : شددت الشّيء قوّيت عَقْدَه . قال : وشددنا أَسْرهم . فشدّوا الوثاق » ويقول الطّبريّ[٤] : « الأشدّ جمع شدّ كما الأضرّ جمع ضرّ وكما الأشرّ جمع شرّ . والشّدّ القوّة ، وهو استحكام قوّة شبابه وسنّه ، كما شَدُّ النّهار ارتفاعُه وامتداده يقال : أتيته شدَّ النّهار ومدَّ النّهار وذلك حين امتداده وارتفاعه » .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تبدأ باليتامى لأنّهم أضعف الضّعفاء . أما وقد راقب الأوصياء وأولو الأمر الله تعالى فى أموال اليتامى ومن فى حكمهم ، وينبغى أن يكون لإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة دورٌ فى تحقيق هذه الغاية الحميدة ، فإنّ الآية الكريمة تتحوّل إلى مطلق المال الّذى ينبغى أن يكون الحصول عليه بطريقٍ شرعيّ . ولمّا كانت التّجارة بإرادة الله تعالى أوسع أبواب الرّزق وكان الغالب على التّعامل بين النّاس فى عمليّتي البيع والشّراء أن يتمّ بالكيل والميزان فقد تحوّلت بعد النّهي عن أكل أموال اليتامى ظلمًا إلى الأمر بإيفاء الكيل والميزان بمعنى النّهي عن أكل أموال النّاس بالباطل : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقِسْط لا نكلّف نفسًا إلاّ وُسْعَها ﴾ والقسط بمعنى العدل[٥] وحينما يرتبط هذا اللّفظ بالميزان فى مثل قول الحقّ جلّ

---

(١) الآية ٢٢٠ . (٢) الآية ٦ . (٣) « شدّ » ٢٥٦ . (٤) تفسير الطّبريّ ٦٢/٨ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦٣/٨ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قسط » ٤٠٣ .

وعلا[١] : ﴿ ونضع الموازين القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلم نفسٌ شيئًا وإن كان مثقالَ حبّةٍ مِنْ خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وحينما يرتبط الوفاء بالكيل والقسطاس المستقيم بمعنى الميزان السّويّ[٢] فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا[٣] : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا ﴾ يصحّ بشأن آية سورة الأنعام أن نربط بين الوفاء والكيل ، وبين القسط والميزان . وبذلك يكون قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الإسراء : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ مفصّلاً لقول الحقّ فى سورة الأنعام : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ وكأنّ المعنى : وأوفوا الكيل إذا كلتم واستعملوا الميزان بالقِسط وبالعدل إذا وزنتم . ويلاحظ بشأن المكيال أنّه بحاجةٍ إلى الوفاء أي إلى ملئه . ويلاحظ بشأن الميزان أنّه بحاجةٍ إلى القِسْط بمعنى النّصيب بالعَدْل كالنِّصَف والنِّصَفة[٤] بمعنى أنّ الميزان فى العادة ذو كفّتين . الكفّة الأولى تمثّل البائع ، والكفّة الأخرى تمثّل المشترى ، فيجب على البائع ألاّ يبخس النّاس أشياءهم وألاّ يَنْقُص الميزان ، ويجب على البائع أن يعطى المشترى قِسْطَه أي نصيبه بالعدل والنِّصَفة . واللّطيف فى الأمر أنّ القِسط من معانيه أن يأخذ الشّخص قِسْطَ غيره ونصيبَه وذلك جَوْر ، وأنّ الإقساط أن يُعْطي قِسْطَ غيره ونصيبه وذلك إنصاف . ولذلك قيل : قَسَط الرّجل إذا جار . وأقسط إذا عدل . قال : ﴿ وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا ﴾. وقال : ﴿ وأَقْسِطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾[٥] .

ولمّا كان ربّ العزّة لا يكلّف نفسًا إلاّ وُسْعَها وأرشدنا إلى دعائه ألاّ يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، قال تعالى[٦] : ﴿ لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وُسْعَها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ فإنّ آية سورة الأنعام

---

(١) سورة الأنبياء ٤٧ .
(٢) انظر الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قسط » ٤٠٣ .
(٣) سورة الإسراء ٣٥ . (٤و٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قسط » ٤٠٣ .
(٦) سورة البقرة ٢٨٦ .

يجيء فيها المعنى ذاته في القول : ﴿ لا نكلّف نفسًا إلاّ وسعها ﴾.

وفي أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة البقرة أشرنا إلى مجيء لفظ الوسع في هذه الآية الأخيرة منها وليس لفظ الطّاقة لأنّ الوسع يستنفد بعض القوّة بخلاف الطّاقة الّتي تستنفد القوّة كلّها . إنّ مجيء لفظ الوسع في آية سورة البقرة وفي آية سورة الأنعام من مظاهر رحمة الله تعالى الواسعة الّتي وسعتنا وشملتنا فله جلّ وعلا الحمد والمِنّة . إنّ مَنْ تَحَرَّى العدل والقسط في المكيال والميزان فأخطأ فإنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم لأنّ الأعمال بالنّيّات كما قال الصّادق المصدوق ﷺ(١) ولأنّ الله تعالى وضع عن أمّة محمّد ﷺ الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه كما قال الصّادق المصدوق ﷺ(٢) .

ومن البيّن أنّنا مازلنا نتعامل مع المال . وإنّ القِسْط بمعنى العدل المطلوب منّا في التّعامل بالأموال تلاه الأمر بالعدل المطلوب منّا في الأقوال لأنّ المسلم ينبغي أن يكون خلقه عظيمًا في كلّ مظاهر النّيّة والقول والعمل والسّلوك والمعاملة ، وقبل ذلك وبعد ذلك في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . قال تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ إنّ المسلم لله تعالى ربّ العالمين عادلٌ في بيعه وشرائه وقوله . لا تأخذه في الحقّ لومة لائم ، ويقول الحقّ على ذي القربى بل على نفسه .

وهكذا يكون المسلم وفيًّا وعادلاً في كيله ووزنه وفعله وقوله ، وكذلك في عبادته ربّه جلّ وعلا وحده لا شريك له . قال تعالى : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ والمراد بذلك العهد الّذي أخذه الله تعالى علينا ونحن في عالم الذّرّ بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان الثّانية والسّبعون بعد المائة والثّالثة والسّبعون بعد المائة من سورة الأعراف . وإنّما تكون عبادة الله تعالى وحده لا شريك له بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين .

---

(١) صحيح البخاريّ ١/٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٤٢ .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون ﴾ والمعنى لعلّكم تتّعظون[١] ومن المعروف أنّ الموعظة محلّها القلب . وبهذا يكون التّذييل فى الآية الكريمة قد تعامل مع القلب بعد أن تعامل التّذييل فى الآية الكريمة السّابقة مع العقل . إنّ العقل والقلب متكاملان ويعملان معًا ولكن يتقدّم أحدهما الآخر فى بعض المجالات وفى بعض الحالات . لقد غلب العقل بشأن قضايا الآية الكريمة السّابقة . وغلب القلب بشأن قضايا هذه الآية الكريمة التّالية .

إنّ الّذى تنفعه الذّكرى والموعظة يتذكّر بشأن مال اليتيم مثل قول الحقّ جلّ وعلا[٢] : ﴿ ولْيَخْشَ الّذين لو تركوا مِنْ خلفهم ذرّيّةً ضعافًا خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا . إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنّما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا ﴾ وبشأن إيفاء الكيل واستعمال الميزان بالعدل يتذكّر مثل قول الحقّ جلّ وعلا[٣] : ﴿ ويلٌ للمطفّفين . الّذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون . ألا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون . ليومٍ عظيم . يوم يقوم النّاس لربّ العالمين ﴾ وبشأن العدل فى القول يتذكّر مثل قول الحقّ جلّ وعلا[٤] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين . إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ وبشأن الوفاء بعهد الله يتذكّر مثل قول الحقّ جلّ وعلا[٥] : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم مِنْ ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شَهِدْنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا مِنْ قَبْلُ وكنّا ذرّيّةً مِنْ بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المُبْطِلون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٩٠ .
(٢) سورة النّساء ٩ ، ١٠ .
(٣) سورة المطفّفين ١ — ٦ .
(٤) سورة النّساء ١٣٥ .
(٥) سورة الأعراف ١٧٢ و١٧٣ .

وإنّ مِنْ ألطف ما ينبغى الإشارة إليه مجىء لفظ الميزان وليس الوزن فى القول : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ وفى مجىء لفظ الميزان تنبيهٌ إلى أنّ لكلٍّ من الطّرفين حقًّا كاملاً فى إحدى الكفّتين . إنّ ما يوضع فى كفّة البائع يجب أن يكون وافيًا ، وإنّ ما يوضع فى كفّة المشترى يجب أن يكون فى حدّه الأدنى مماثلاً لما فى كفّة البائع . إنّ المكيال حينما كان واحدًا جاء الأمر فى حقّه بالوفاء . وإنّ الميزان حينما كان شركةً بين طرفين جاء الأمر فى حقّه بالعدل وبالقسط . وسبق أن عرفنا أنّ القِسْط هو النّصيب بالعَدْل .

ونستطيع أن نعيد المعاني الّتى تحدّثت عنها الآيتان الكريمتان إلى العبادة والسلوك والمعاملة القوليّة والفعليّة . إنّ كلّ هذه المعاني يجب أن يوظّفها المسلم فى هذه الحياة الأولى كي تكون حياته طيّبةً فى الأولى والآخرة معًا بإذن الله تعالى . وإنّ الآية الكريمة الثّالثة فى آيات الحكمة والأخيرة فى القسم تؤكّد هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٣)

قال تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيمًا فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ﴾ .

يجىء فى تذييل الآيات الكريمات الثّلاث القول : ﴿ ذلكم وصّاكم به ﴾ ويلفت النّظر بشأن هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيمًا فاتّبعوه ﴾ مجىء اسم الإشارة الدّالّ على المفرد وعلى القرب : ﴿ هذا ﴾ ومجىء جملة : ﴿ فاتّبعوه ﴾ الّتى يفهم منها أنّ لدى المسلمين إمامًا عليهم أن يتّبعوه وصراطًا مستقيمًا عليهم أن يسلكوه وطريقًا غير معوجّ عليهم أن يستغنوا به عن أيّ طريق آخر معوجٍّ وغير مستقيم . فما هذا الصّراط المستقيم الّذى علينا نحن المسلمين أن نتّبعه وأن نهتدى بنوره الّذى يهدى إلى الطّريقة الّتى هي أقوم ؟ إنّه القرآن الكريم ، الصّراط المستقيم ، والنّور المبين ، وحبل الله المتين . إنّه كلمة الله تعالى الأخيرة

للبشريّة ، الّتى أوحاها لمحمّد بن عبد الله ﷺ خير البريّة ، فى أسمى طرق الوحي ، والّتى بيّنتها سنّته ﷺ من أقوالٍ وأفعال وتقريراتٍ وصفات . لقد بعث الله تعالى محمّدًا ﷺ بدين الإسلام الّذى لا يقبل جلّ وعلا مِنْ أيّ عبدٍ دينًا سواه، والّذى أكمله جلّ وعلا ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . إنّ الله سبحانه وتعالى يأمرنا بأن نتّبع هذا الصّراط المستقيم ، معجزة محمّد بن عبد الله ﷺ الكبرى الخالدة الّتى تهدى للطّريقة الّتى هي أقوم ، والّتى بيّنتها سنّته ﷺ . لقد بيّن كلٌّ من القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ معالم الطّريق الوحيد المستقيم ، وعيّنا منارات صراط الله تعالى القويم ، وحدّدا تعاليم دين الإسلام سبيل الله غير ذى العوج . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خطّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده ثمّ قال : هذا سبيل الله مستقيمًا . وخطّ عن يمينه وشماله ثمّ قال : هذه السّبل ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطان يدعو إليه ، ثمّ قرأ : وأنّ هذا صراطى مستقيمًا فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله . وكذا رواه الحاكم وقال صحيحٌ ولم يخرجاه ورواه أبو جعفر الرّازى وورقاء وعمرو بن أبى قيس ويزيد بن هارون ومسدّد والنّسائيّ وابن حبّان[1] .

ولمّا كان اتّباع الصّراط المستقيم والسّير فى الطّريق القويم يقتضى كلٌّ منهما تطبيق كلّ تعاليم الإسلام ، بما فى ذلك التّعاليم فى الآيتين الكريمتين السّابقتين كان فى التّذييل تنبيهٌ على هذه المهمّة الشّاقّة والغاية الكبيرة : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ﴾ إنّ التّقوى مطلوبةٌ لتحقيق مقتضيات صراط الله تعالى المستقيم . والمعروف أنّ التّقوى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ المتّقى هو ذو العقل الرّاجح وذو القلب السّليم ، وذو العمل المستقيم . إنّ التّقوى هي ثمرة النّعوت الّتى يتحلّى بها أولو الألباب المتّقون الّذين يهتدون بنور الكتاب العزيز الّذى لا ريب فيه .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٩٠ فى تخريج الحديث بتفصيل .

[١٨]

« آتى الله موسى التّوراة وآتى محمّدًا القرآن فآمنوا
وافعلوا الخير قبل فوات الأوان »

الآيـــات (١٥٤ ـ ١٥٨)

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

تحدّثت الآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات فى القسم السّابق عن بعض الأحكام غير القابلة للنّسخ فى جميع الشّرائع السّماويّة ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد ابن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . وقد فصّلت آيات الحكمة من سورة الإسراء هذه الأحكام من الآية الكريمة الثّانية والعشرين إلى الآية الكريمة التّاسعة والثّلاثين . وهذا معناه أنّ هذه الأحكام لم تُنْسخ فى شريعة موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . والمعروف أنّ شريعة عيسى عليه السّلام متمّمةٌ لشريعة موسى عليه السّلام . وما أكثر المواضع فى القرآن الكريم الّتى كان فيها الاكتفاء بموسى عليه السّلام وشريعته لدخول شريعة عيسى عليه السّلام فيها . وإنّ هذا المعنى نصادفه فى أولى آيات القسم الّتى يتمّ الحديث فيها عن موسى عليه السّلام ، لهذه الحكمة من ناحية ، ولأنّ لعرب المنطقة آنذاك علاقةً ببنى إسرائيل بأكثر من النّصارى من ناحيةٍ أخرى . ثمّ كان الحديث عن القرآن الكريم مباشرةً وعن خير الأنام وأمّته ﷺ . إنّ الله سبحانه وتعالى آتى موسى عليه السّلام التّوراة تمامًا لنعمه جلّ وعلا عليه وجزاءً لموسى عليه السّلام على الّذى أحسن القيام به وتفضيلاً لكلّ شيءٍ فى مجال الأحكام وهدًى لبنى إسرائيل من الضّلالة ورحمةً من الله تعالى الواسعة لعلّهم بلقاء ربّهم جلّ وعلا بعد الموت يؤمنون . وإنّ هذا القرآن الكريم الّذى يستعمل فى حقّه اسم الإشارة : ﴿ هذا ﴾ تنبيهًا على وجوب قربه من القلوب ولصوقه بالأفئدة كتابٌ مباركٌ أنزله الله تعالى على حبيبه محمّد بن عبد الله ﷺ ورسوله بدين الإسلام إلى العالمين فعليهم اتّباعه لعلّهم يُرْحمون . لقد أنزل الله تعالى إلينا أشرف الكتب السّماويّة لئلاّ نقول إنّما أنزل الله تعالى التّوراة والإنجيل على اليهود والنّصارى من قبلنا وإنّا كنّا عن دراستهم لغافلين ، ولئلاّ نقول لو أنّا أنزل الله تعالى الكتاب علينا لكنّا أهدى منهم . لقد جاءنا من ربّنا جلّ وعلا حجّةٌ

بيّنة وهدًى ورحمة . إنّه لا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الله تعالى وأعرض وصدّ النّاس عنها وسينالون سوء العذاب يوم القيامة . وإنّ هؤلاء المكذّبين الصّادّين عن آيات الله تعالى هل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتي أمر ربّك أو يأتي بعض آيات ربّك دليلاً على قيام السّاعة كطلوع الشّمس من مغربها . إنّه يوم يأتي بعض آيات الله تعالى ، دليلاً على قيام السّاعة الّتي يؤمن بها النّاس أجمعون آنذاك ، لا ينفع أيَّ نفسٍ من النّفوس إيمانُها بعد فوات الأوان . إنّ الإيمان وعمل الصّالحات ينبغي أن يكونا قبل أن تأتي أشراط السّاعة وعلاماتها . إنّ على الصّادّين أن ينتظروا كلّ ما نصّ عليه القرآن الكريم فإنّ المؤمنين منتظرون . وكلّ آتٍ قريب .

الآيـــة رقـــم (١٥٤)

قال تعالى : ﴿ ثمّ آتينا موسى الكتاب تمامًا على الّذي أحسن وتفصيلاً لكلّ شيءٍ ورحمةً لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون ﴾ .

من المعروف أنّ حرف العطف ثمّ يفيد في الأساس التّرتيب مع التّراخي . ويدلّ على أنّ ما بعده من الكلام والخبر بعد الّذي قبله[١] ووراء ذلك يفيد ثمّ أحيانًا مجرّد الانتقال من الخبر إلى الخبر ، وهو هنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للتّرتيب[٢] .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أن الله سبحانه وتعالى آتى موسى عليه السّلام ، كبير أنبياء بني إسرائيل الكتاب . والمراد بالكتاب التّوراة . والمعروف أنّ التّوراة نزلت مكتوبةً جملةً واحدةً في الألواح على نحو ما يُفْهَم مثلاً من هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف[٣] قال تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كلّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فخذها بقوّةٍ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٦٦/٨ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٩١/٢ .
(٣) الآية ١٤٥ .

وقد آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام التّوراة تمامًا لنعمه جلّ وعلا عليه فقد اصطفاه الله تعالى بنعمتي النّبوّة والرّسالة . وإنّما كان إيتاء الله تعالى موسى عليه السّلام الكتاب تمامًا لنعمه جلّ وعلا عليه ، وجزاءً على الّذى أحسن موسى عليه السّلام القيام به فى سبيل ربّه جلّ وعلا ، وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فى مجال الأحكام ، وهدًى لبنى إسرائيل من الضّلالة ، فإنّ وظيفة الكتاب السّماويّ الأولى الهداية إلى الطّريقة الّتى هي أقوم ، ورحمةً لبنى إسرائيل من الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيء لعلّ بنى إسرائيل يؤمنون بلقاء ربّهم جلّ وعلا بعد الموت ، ويعملون لذلك اليوم الآخر المجموع له النّاس المشهود .

وإنّ الحديث عن الكتاب الّذى آتاه الله تعالى موسى عليه السّلام رشّح للحديث عن الكتاب الّذى آتاه الله تعالى محمّدًا ﷺ فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٥)

قال تعالى : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم ترحمون ﴾ .

يفصل بين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى أوحى الله تعالى إليه القرآن الكريم وبين عيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل الّذى أوحى الله تعالى إليه الإنجيل زهاء ستّة قرون . ويفصل بين عيسى عليه السّلام وبين موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل الّذى أوحى الله تعالى إليه التّوراة عددٌ أكبر من القرون . وقد عرفنا أنّ الإنجيل متمّم للتّوراة ولذلك يكتفى القرآن الكريم فى العديد من المواضع بالحديث عن التّوراة ، ومنها هذا الموضع الّذى يتمّ فيه الحديث عن القرآن الكريم بعد الحديث عن التّوراة . وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام المكّيّة الّتى نزلت قبل الهجرة يشار إلى هذا الكتاب العزيز باسم الإشارة ﴿ هذا ﴾ الدّالّ على القرب . فالقرآن الكريم أقرب الكتب السّماويّة عهدًا بالسّماء ونزولاً منها على قلب خاتم النّبيّين

وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . وإنّ هذا القرب الزّمانيّ ينبغى أن يقترن به قربٌ مكانيّ بأن يحتلّ هذا الكتاب العزيز سويداء كلّ قلب .

وإذا كانت لفظة الكتاب قد استعملت فى الآية الكريمة السّابقة فى حقّ التّوراة لأنّها نزلت مكتوبةً فى الألواح فإنّ لفظة كتاب تستعمل هنا فى حقّ القرآن الكريم تنبيهًا إلى أنّ هذا الكتاب العزيز الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين قد تعاون على حفظه بفضلٍ من الله تعالى ونعمة كلٌّ من السطر أي الكتابة والصّدر أي الحفظ . إنّ القرآن الكريم نزل به منجّمًا أي مفرّقًا رسولٌ من الملائكة كريم ذاكم هو جبريل عليه السّلام ، على رسولٍ من البشر كريم ، ذاكم هو محمّد بن عبد الله ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّيّ . وقد تكفّل الله تعالى بتثبيت القرآن الكريم فى فؤاده ﷺ وجمعه فى صدره عليه الصّلاة والسّلام . قال تعالى[1] : ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به . إنّ علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه . ثمّ إنّ علينا بيانه ﴾ وبأمرٍ من ربّ العزّة يعيّن جبريل عليه السّلام للنّبيّ ﷺ كلّ مرّة موضع ما نزل عليه من آي الذّكر الحكيم وسوره ويحدّد مكانه فى القرآن الكريم . ويتلو المصطفى ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّيّ ما أوحى الله تعالى إليه من القرآن الكريم لأصحابه الكرام البررة ويأمر واحدًا من كتبة الوحي وعددهم فى حدود الأربعين كاتبًا أن يكتب ما أوحى الله تعالى به إليه ويضعه فى موضعه من القرآن الكريم . إنّ لفظة القرآن تنظر إلى القرآن الكريم من زاوية قراءته وقد كان المصطفى ﷺ أوّل القرّاء وأوّل الجُمّاع للقرآن الكريم فى صدورهم . وإنّ لفظة الكتاب تنظر إلى القرآن الكريم من زاوية كتابته . وإنّ تعاون الكتابة والقراءة على حفظ هذا الكتاب العزيز مصداقٌ لقول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

إنّ المطلوب من أمّة محمّد ﷺ ، بنصّ الآية الكريمة ، وهي خير أمّة أخرجت للنّاس ، بنصّ القرآن الكريم ، أن تتّبع تعاليم هذا الكتاب المبارك الموحى به من ربّ العالمين لا أن تبتدع ، وأن تستمسك بهذه التّعاليم وبتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين

---

(١) سورة القيامة ١٦ — ١٩ .

(٢) سورة الحِجْر ٩ .

المبيّنة لهذا الكتاب العزيز حتّى تصل هذه الأمّة جمعاء إلى مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] فلعلّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ أن تسعها وتشملها .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تقطعان عذر خير أمّةٍ أخرجت للنّاس لو أنّها ـ لا سمح الله ـ اتّخذت هذا القرآن الكريم مهجورًا وهذه أولاهما فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٦)

قال تعالى : ﴿ أن تقولوا إنّما أُنْزِلَ الكتابُ على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين ﴾ .

والمعنى أنّ ربّ العزّة قد أنزل هذا الكتاب المبارك على محمّد بن عبد الله ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّيّ العربيّ القرشيّ الهاشمى لئلاّ تقولوا أيّها العرب ، وأنتم مادّة الإسلام الأولى ، إنّما أُنْزِل الكتاب السّماويّ على طائفتين من قبلنا وهما اليهود ، وقد أرسل الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام وأنزل عليه التّوراة ، والنّصارى ، وقد أرسل الله تعالى إليهم عيسى عليه السّلام وأنزل عليه الإنجيل ، ولئلاّ تقولوا إنّا كنّا عن دراسة أهل الكتاب وعلمهم لغافلين لأنّا أمّةٌ أمّيّةٌ لا تقرأ ولا تكتب فى لغتها فكيف تحيط علمًا بالمكتوب فى غير لغتها . وبالنّظر إلى استعمال القرآن لفظ الغافلين والغافلات يتبيّن أنّ الغافل هو الّذى يتساوى فى حقّه وجود الشّيء الّذى يمسّه مسًّا مباشرًا فى الخير أو الشّرّ وعدم وجوده لعدم علمه بذلك الشّيء أصلاً . إنّ حال العرب بالقياس للتّوراة والإنجيل حال الغافل الّذى يتساوى فى حقّه وجودهما وعدمهما وإنّ الآية الكريمة التّالية تعمّق هذه المعاني فإلى .

---

(١) صحيح البخاريّ ١/٢٠ .

الآيـــة رقـــم (١٥٧)

قال تعالى : ﴿ أو تقولوا لو أنّا أُنْزِل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم . فقد جاءكم بيّنةٌ من ربّكم وهدًى ورحمة . فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها . سنجزى الّذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ .

وأنزل الله تعالى الكتاب العزيز بلسانٍ عربيٍّ مبين لئلاّ نقول نحن العربَ مادّةَ الإسلام الأولى لو أنّا أُنْزِل علينا الكتاب من ربّنا جلّ وعلا لكنّا أهدى منهم وأقوم سبيلاً من اليهود والنّصارى جميعًا . لقد جاءنا ووصل إلينا بالفعل حجّةٌ من ربّنا جلّ وعلا بيّنة . والقرآن الكريم حجّةٌ لنا أو علينا ، وهو هدًى نهتدى بنوره إلى الطّريقة الّتى هي أقوم فلا نضلّ بإذن الله تعالى ولا تتفرّق بنا السّبل عن سبيل الحقّ ، وهو رحمةٌ من الله تعالى خصّنا بها إذا نحن استمسكنا بتعاليمه ولم نتّخذه مهجورًا فيشكونا ـ لا سمح الله ـ المصطفى ﷺ يوم القيامة إلى ربّه جلّ وعلا على رءوس الأشهاد . إنّه لا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الله تعالى وأعرض عنها وصدّ الآخرين عن سواء السّبيل . إنّ الله سبحانه وتعالى سيجزى الّذين يصدفون عن آياته جلّ وعلا سوء العذاب بسبب إعراضهم وصدّهم الآخرين عن دين الإسلام . إنّ جملة ﴿ صدف ﴾ وجملة ﴿ يصدفون ﴾ لاحظ العلماء بشأن معناهما صفتين سيّئتين اتّصف بهما المعرضون عن دعوة الحقّ . وإحدى الصّفتين الميل والانحراف عن الصّراط المستقيم لأنّ الصَّدَف أساسًا بمعنى الميل فى أرجل البعير[1] وأخرى الصّفتين الصّلابة والقسوة وغِلَظ الأكباد لأنّ الصَّدَف كذلك بمعنى جانب الجبل ومن أهمّ صفاته الصّلابة من ناحية[2] والميل إلى إحدى الجهتين من ناحية أخرى[3] ومن

---

(١) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صدف » ومعجم مقاييس اللّغة : « صدف » ٣٣٨/٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صدف » ٢٧٦ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة : « صدف » ٣٣٩/٣ .

ألطف ما يُستَذْكر فى هذه المناسبة الصّدف الّذى يخرج من البحر[١] والصّدف المَحارة[٢] إنّ من أهمّ ما تتّصف به المحارة الصّلابة .

وإنّ هؤلاء الّذين يكفرون ويصدّون عن سبيل الله تعالى تهدّدهم الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٥٨)

قال تعالى : ﴿ هل يَنْظُرون إلاّ أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي ربّك أو ياتي بعض آيات ربّك . يوم يأتى بعض آيات ربّك لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أو كسبت فى إيمانها خيرًا . قُلِ انتظروا إنّا منتظرون ﴾ .

تسأل الآية الكريمة فى حقّ أولئك الصّادقين عن آيات الله تعالى والّذين يستحقّون سوء العذاب هل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة ، أو يأتي أمر ربّك جلّ وعلا بعذابهم العاجل فى الأولى قبل عذابهم الآجل فى الآخرة ، والمعروف أنّ من مات فى حكم من قامت قيامته ، أو يأتي بعض آيات ربّك جلّ وعلا وبعض علامات السّاعة وأشراطها كطلوع الشّمس من مغربها . إنّ من مات حتف أنفه أو أخذه عذاب الدّنيا من أولئك الصّادفين سوف ينتظره عذاب الآخرة .

أمّا الكافرون الّذين يدركون علامات السّاعة فإنّ القول بعد ذلك فى الآية الكريمة يعنيهم فى المقام الأوّل بقصد حمل الكافرين على الإيمان . قال تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربّك لا ينفع نَفْسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا . قل انتظروا إنّا منتظرون ﴾ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال . قال

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صدف » ٢٧٦ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : « صدف » ٣٣٩/٣ .

رسول الله ﷺ : لا تقوم السّاعة حتّى تَطْلُعَ الشّمس من مَغْرِبها . فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها . ثمّ قرأ الآية[1] إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّه يوم يأتى بعض آيات ربّك جلّ وعلا لا ينفع نفسًا من النّفوس إيمانها لم تكن آمنت من قَبْلِ طلوع علامات السّاعة أو كسبت فى إيمانها خيرًا وعملت صالحًا . وهكذا يتبيّن أنّه بعد طلوع علامات السّاعة لا ينفع الإيمان أصلاً ولا يُقْبَل إسلام أحدٍ أساسًا . كما يتبيّن أنّ الإيمان قبل طلوع علامات السّاعة ينبغى أن يقترن به الدّليل على صدقه وهو عمل الصّالحات . إنّ شرط الإيمان يومئ إليه القول : ﴿ لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾ وإنّ شرط عمل الصّالحات يومئ إليه القول : ﴿ أو كسبت فى إيمانها خيرًا ﴾ وهكذا يتبيّن أنّ الإيمان الكامل نيّة وقولٌ وعمل . وفى القول : ﴿ قل انتظروا إنّا منتظرون ﴾ نوعٌ من تهديدٍ للمصرّين على الكفر بأنّ عليهم أن ينتظروا ما أومأت إليه الآية الكريمة فإنّ المؤمنين المصدّقين بكلّ ما جاء فى القرآن الكريم منتظرون كلّ ذلك .

وإنّ مِنْ أهمّ ما يلفت الانتباه روعة ترتيب المعاني فى القول : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربّك لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا ﴾ إنّ المفعول به الّذى حقّه أن يتأخّر عن الفاعل يتقدّم : ﴿ نفسا ﴾ وإنّ الفاعل الّذى حقّه أن يتقدّم على المفعول به يتأخّر ويلحق به الضّمير العائد إلى النّفس : ﴿ إيمانُها ﴾ وما الّذى جعل المعاني تنساب كالجدول الرّقراق رغم الحُدور[2] والصّخور؟ ظاهرة الإعراب الّتى تفخر بها لغة الضّاد الّتى نزل بها الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد . لقد تقدّمت النّفس وهي فى موقع المفعول به لأنّها موطن الاهتمام وموطن الهلكة بسبب خلوّها من الإيمان الذى هو فى موضع الفاعل فتأخّر رغم أنّ حقّه التّقديم قاعديًا . وإنّ

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٧٣ .

(٢) الحدور بضمّ الحاء والحدر بفتح الحاء الحطّ مِنْ عُلْوٍ إلى سفل . القاموس .

مجيء نفس منكّرة جعل اللّفظة شاملةً لكلّ نفسٍ خلقها الله تعالى وما أكثر تلك النّفوس . إنّ النّفس مهما يكن هلعها وجزعها آنذاك لا ينفعها سوى إيمانها وعملها الصّالحات . ولمّا كان الإيمان يسبق العمل جاء القول : ﴿ لم تكن آمنت من قبل ﴾ متقدّمًا . ولمّا كان العمل يتأخّر عن الإيمان ويترتّب عليه جاء القول : ﴿ أو كسبت فى إيمانها خيرًا ﴾ متأخّرًا . وإنّ هذه المعاني الّتى تتحدّر إلى النّفس تحدّر الماء البارد إلى ذى الغُلّة[1] الصّادى[2] قد حملتها الألفاظ الّتى رتّبتها المعانى ، على نحو ما تبيّن، فى نسقٍ بديع ، ونظمٍ فريد ، وعقدٍ نضيد . إنّ النّظم لا يمكن إلاّ أن يكون فى هذه الصّورة وإلاّ انهار البناء وتصدّع البنيان .

---

(١) الغُلّة بضمّ الميم : العطش الشّديد .

(٢) الصّادى الشّديد العطش .

[١٩]

« اعتصموا بحبل الله وافعلوا الخير وأسلموا واعبدوه
وتوكّلوا عليه إليه المصير »

الآيـــات (١٥٩ ـ ١٦٥)

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
١٥٩ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦٠ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
١٦٣ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٥

بعث الله تعالى محمّد بن عبد الله ﷺ بدين الإسلام النّاسخ لكلّ دينٍ سواه فعلى النّاس جميعًا أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(١) وبعث الله تعالى محمّدًا ﷺ بالحنيفيّة السّمحاء الّتى يشبه ليلها نهارها . ومع كلّ هذه التّوضيحات فإنّ هنالك الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا . إنّ السّياق يقرّر أنّ المصطفى ﷺ ليس من هؤلاء فى شيءٍ من أمر الدّين ، وأنّ أمر هؤلاء إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم يوم القيامة بفضله أو عذّبهم بعدله . ويتجلّى فضل الله تعالى فى الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها، ويتجلّى عدل الله تعالى فى الجزاء على السّيّئة بمثلها وهم لا يُظْلَمون بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة . وما الّذى دهى النّاس حتّى إنّهم انصرفوا عن اتّباع رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة وهو الّذى هداه ربّه جلّ وعلا إلى صراطٍ مستقيم ، إلى دين الإسلام الدّين المستقيم ملّة إبراهيم عليه السّلام الحنيف عن كلّ دين إلى دين الإسلام والّذى ما كان من المشركين . إنّ المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة وهو الّذى أمره ربّه جلّ وعلا أن يقول ويعلن بأنّ صلاته وذبحه فى الحجّ وغير الحجّ وكلّ عبادته وحياته ومماته لله ربّ العالمين لا شريك له وهو عليه الصّلاة والسّلام أوّل المسلمين من هذه الأمّة الإسلاميّة . وهكذا يكون إخلاص العبادة لله تعالى . ويكون إثر ذلك إعلان المصطفى ﷺ توكّله على الله تعالى ردًّا لدعوة المشركين له عليه الصّلاة والسّلام أن يبتغي غير الله تعالى ربًّا وهو جلّ وعلا ربّ كلّ شيء . ويقرّر السّياق مسئوليّة كلّ إنسان عمّا يأتى من خيرٍ أو شرّ وحكم الله تعالى يوم القيامة بين الخلائق فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدّين . ولمّا كانت الحياة الأولى حياة العمل وكانت الآخرة حياة الجزاء فإنّ آخر آيات السّورة الكريمة تقرّر أنّ الله

---

(١) سورة آل عمران ٨٥ .

سبحانه وتعالى هو الّذى جعل بعضنا يخلف بعضنا الآخر فلنعمل فى دنيانا لآخرتنا ، كما تقرّر الآية أنّ الله سبحانه وتعالى رفع بعضنا فوق بعضٍ درجاتٍ فى الجاه والمال والعلم والصّحّة وما إلى ذلك ليختبرنا جلّ وعلا فيما آتانا أنشكر أم نكفر . إنّ الشّكر مطلوبٌ مع النّعمة بالصّبر على الطّاعات وعن المعاصى ، وإنّ الصّبر مطلوبٌ مع النّقمة . وهكذا يكون الصّبر عماد كلّ الأحوال . وفى الجزئيّة الأخيرة فى السّورة الكريمة : ﴿ إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ يكثر التّوكيد فى حقّ المغفرة والرّحمة ويقلّ فى حقّ العقاب . ثمّ إنّ لفظ الرّبّ ينبّه إلى أنّ ضخامة الذّنوب استوجبت سرعة عقاب الرّبّ الغفور الرّحيم من ناحية ، ويؤكّد معنى الحديث الشّريف الّذى بيّن أنّ رحمة الرّبّ الرّءوف الرّحيم تغلب غضبه من ناحيةٍ أخرى . ولا يملك العباد سوى حمد الله تعالى على فضله وعدله الّذى يكون بتلاوة أولى آيات السّورة الكريمة مَثَلاً ، وهي الّتى تبدأ بحمد الله تعالى . وهكذا يكون الارتباط بين بداية السّورة الكريمة ونهايتها . إنّ الحمد لله تعالى أوّلاً وآخرا ، ظاهرًا وباطنا .

الآيـــة رقـــم (١٥٩)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعًا لست منهم فى شيء . إنّما أمرهم إلى الله ثمّ ينبّئهم بما كانوا يفعلون ﴾ .

كُلُّنا على ذُكْرٍ بالحديث النّبويّ الشّريف الّذى يبيّن فيه ﷺ أنّ اليهود افترقت إلى إحدى وسبعين فرقة ، وأنّ النّصارى افترقت إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وأنّ أمّته ﷺ ستفترق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقةً كلّها فى النّار إلاّ واحدةً « وهم أهل السّنّة والجماعة المتمسّكون بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين وأئمّة المسلمين من قديم الدّهر وحديثه كما رواه الحاكم فى

مستدركه أنّه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة النّاجية منهم فقال : من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابى »[1] والمعروف أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ ناسخٌ لسائر الأديان ، السّماويّة منها ومن باب الأَوْلى غير السّماويّة . وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين فرّقوا دينهم فقبلوا بعضه وكفروا ببعضه الآخر وكانوا شيعًا مختلفة ، وفرقًا متنازعة ، وأحزابًا متخاصمة ، لست منهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فى شيءٍ من أمر الدّين ، وليسوا من المصطفى ﷺ فى شيءٍ من أمر الدّين كذلك . « أي لا تشفع لهم ولا لهم بك تعلّق . وهذا على الإطلاق فى الكفّار ، وعلى جهة المبالغة فى العصاة والمتنطّعين فى الشّرع ، لأنّهم لهم حظٌّ فى تفريق الدّين »[2] وإنّ أمر هؤلاء إلى الله تعالى وحده لا شريك له يوم القيامة الّذى ينبّئهم جلّ وعلا فيه بما كانوا يفعلون ويجازيهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ .

وتتحدّث الآية الكريمة التّالية فى ذلك الجزاء الّذى يتبيّن منه فضل الله تعالى وعدله فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٦٠)

قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسّيّئة فلا يُجْزَى إلاّ مثلها وهم لا يُظْلمون ﴾ .

فى أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة البقرة وقفنا مليّاً عند الاية الكريمة الحادية والسّتّين بعد المائتين . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلةٍ مائةُ حبّة . والله يضاعف لمن يشاء . والله واسعٌ عليم ﴾ إنّ آية سورة الأنعام تبيّن بشأن الحسنة الّتى يقوم بها المؤمن وهو يريد بها

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٣ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٥/٤١١ .

وجه ربّه الأعلى بأنّ له أجر عشر أمثالها ، فى حين تبيّن آية سورة البقرة أنّ ثواب الحسنة يصل إلى سبعمائة ضعف ، بل إلى ما وراء ذلك من أضعافٍ مضاعفة يكرم بها الله تعالى من يشاء من عباده .

وليس وراء هذا الفضل من الله تعالى فضل .

وبشأن السّيّئة تبيّن آية سورة الأنعام أنّ من جاء بها لا يُجْزَى إلاّ بمثلها ، أي بمثل السّيّئة الواحدة .

وليس وراء هذا العدل من الله تعالى عدل .

ويتوّج الفضل من الله تعالى والعدل بأخذ كلٍّ جزاءه على جهة القِسْط ونفي الظّلم مطلقًا . إنّ شخصًا واحدًا من بين النّاس الّذين لا يعلمهم إلاّ الله تعالى لا يظلم بحذف حسنة أو بإضافة سيّئة . إنّه الفضل أو العدل اللّذان يشملان الجميع .

ولمّا كان دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ ناسخًا لكلّ دينٍ سواه ، فعلى النّاس جميعًا أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين ، ولمّا كان المصطفى ﷺ ليس من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا فى شيءٍ من أمر الدّين فإنّ الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات تتحدّث فى هذه المعاني . وهذه هي .

الآيـــات رقـــم (١٦١ ـ ١٦٣)

قال تعالى : ﴿ قُلْ إنّنى هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم دينًا قِيَمًا مِلّةَ إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين . قُلْ إنّ صلاتى ونُسُكى ومحياي ومماتى لله ربّ العالمين . لا شريك له وبذلك أُمِرْت وأنا أوّل المسلمين ﴾ .

إنّ القول هنا : ﴿ ملّة إبراهيم حنيفا ﴾ جاء فى الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين بعد المائة من سورة البقرة ، والآية الكريمة الخامسة والتّسعين من سورة آل عمران ، والآية الكريمة الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النّساء إلى غير ذلك من آياتٍ

كريمات . وفى أثناء دراستنا المتأمّلة لآية سورة البقرة درسنا باستفاضة لفظة حنيفًا . وقد تبيّن أنّ الحنيف هو المائل عن الضّلالة إلى الاستقامة وعن الشّرك إلى التّوحيد ، مِنَ الحنَف بمعنى الميل ، ومنه رَجُلٌ أحنف وهو الّذى تميل قدماه ، كلّ واحدةٍ منهما إلى أختها بأصابعها . وإنّ القول هنا و﴿ نُسُكى ﴾ يذكّرنا بدراستنا المتأمّلة للآية الكريمة الثّامنة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة ، الّتى جاء فيها القول : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ وقد درسنا باستفاضة لفظة المناسك جمع المَنْسَك من زاوية تطوّر الدّلالة. وقد كان لفظ المنسك يطلق على مكان الذّبح أساسًا لأنّ النّسيكة بمعنى الذّبيحة ، ثمّ شملت اللّفظة كلّ أعمال الحجّ الّتى من أبرزها ذبح النّسيكة فى المنسك، ثمّ أصبحت اللّفظة شاملةً لمطلق العبادة . وإنّ شيئًا قريبًا من هذا يقال عن لفظة النّسك . إنّ لفظة النّسك مرتبطةٌ أساسًا بذبح النّسيكة أي الذّبيحة فى المنسك أي مكان الذّبح ، ثمّ شملت اللّفظة كل أعمال الحجّ الّتى من أبرزها ذبح النّسيكة فى المنسك ، ثمّ أصبحت اللّفظة شاملةً لمطلق العبادة . وها هوذا الرّاغب — مثلاً — يقول[1] : « النّسك : العبادة ، والنّاسك العابد ، واختصّ بأعمال الحجّ ، والمناسك مواقف النُّسُك وأعمالها ، والنّسيكة مختصّة بالذّبيحة » .

فى ضوء ما سبق يصحّ أن نقول بشأن الآيات الكريمات : إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ أن يقول ويعلن على رءوس الأشهاد بأنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، وأنّ ربّه جلّ وعلا الّذى ربّاه بنعمه وآلائه هو الّذى هداه إلى صراطٍ مستقيم ، إلى دين الإسلام المستقيم غير ذى العِوج . وهذا الدّين القِيَم الّذى بعث الله تعالى به محمّدًا ﷺ هو ملّة إبراهيم عليه السّلام الحنيف المائل عن كلّ دينٍ إلى دين الإسلام ربّ العالمين والّذى ما كان من المشركين . والمعروف أنّ ربّ العزّة بعث حبيبه محمّدًا ﷺ بالنّسخة الأخيرة الكاملة من الحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نسك » ٤٩٠ .

وتأمر الآيتان الكريمتان التّاليتان المصطفى ﷺ أن يقول كذلك : إنّ صلاته عليه الصّلاة والسّلام ، وذبحه فى الحجّ وغير الحجّ ، وعبادته فى الحجّ وغير الحجّ ، وحياته وموته ، إنّ كلّ ذلك لله تعالى ربّ العالمين وحده لا شريك له . إنّ المصطفى ﷺ قد أُمِرَ بذلك التّوحيد ، وإنّه عليه الصّلاة والسّلام أوّل المسلمين من هذه الأمّة المحمّديّة المسلمة لله ربّ العالمين .

وإنّ لنا نحن المسلمين أُسْوةً حسنةً فى المصطفى ﷺ . وإنّا لنردّد ما أوحاه الله تعالى للمصطفى ﷺ فى هذه الآيات الكريمات وفى كلّ آي الذّكر الحكيم . إنّ حبيبنا المصطفى ﷺ هو أوّل المسلمين وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين .

ومن البيّن أنّ الآيات الكريمات فى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له . وإنّ الآية الكريمة التّالية فى إخلاص التّوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٦٤)

قال تعالى : ﴿ قل أغَيْرَ الله أبغى ربّاً وهو ربُّ كلّ شيءٍ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليها . ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى . ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ .

على الرّغم من كلّ هذه التّوضيحات للمشركين فإنّهم يصرّون على شركهم ، بل على دعوة المصطفى ﷺ إلى دينهم ! إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك السّفهاء فى أسلوب الاستفهام الإنكاري : أغير الله تعالى خالقى وخالق كلّ شيءٍ أبغى ربّاً وسيّدًا ومربّيًا وهو جلّ وعلا ربّ كلّ شيءٍ ومربّيه بنعمه ومنشّؤه بآلائه . إنّ على كلٍّ أن يعلم أنّ كلّ نفس لا تكسب من شرّ إلاّ عليها ، وفى المقابل لا تكسب من خيرٍ إلاّ لها . وإنّ على كلٍّ أن يعلم أنّ كلّ نفسٍ وازرةٍ

تحمل وحدها يوم القيامة وزرها ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى . وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ منه شيءٌ ولو كان ذا قربى ﴾[1] وإنّ على كلٍّ أن يعلم أنّ مرجعه إلى ربّه جلّ وعلا يوم القيامة فينبّئه بما اختلف فيه مع غيره فى أمر الدّين وأنّ المحسن مثاب والمسيء معاقب وقد قال الله تعالى[2] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شيءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ .

ومن البيّن أنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ قل أغير الله أبغى ربًّا وهو ربّ كلّ شيء ﴾ هو محور التّوكّل على الله تعالى فى الآية ، وأنّ ثمّة جمعًا فى نسق بين اسمين للذّات العليّة : ﴿ الله ﴾ و: ﴿ ربّ كلّ شيء ﴾ ومن البيّن ارتباط لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ بتوحيد الألوهيّة وبالعموم ، وارتباط لفظ الرّبّ بتوحيد الرّبوبيّة وبالخصوص . إنّ توحيد الألوهيّة هو توحيد الله تعالى بأفعال العباد فهو جلّ وعلا إله كلّ شيء . وإنّ توحيد الرّبوبيّة هو توحيد الله تعالى بأفعاله تعالى . إنّه لا يكون دعاءٌ ولا استعانةٌ ولا ذبحٌ ولا نذرٌ ولا شيءٌ من هذه الأنواع من العبادة الّتى يقوم بها العباد إلاّ لله تعالى وحده لا شريك له .

ومن البيّن أيضًا أنّ الآية الكريمة وراء ذلك فى مسئوليّة الإنسان الكاملة عمّا يأتى من خيرٍ أو شرّ ، فعلى الإنسان أن يعمل فى دنياه لآخرته ، وأن يسلك الطّريق القويم ، وأن يهتدي بنور القرآن الكريم وسنّة النّبيّ العظيم ﷺ .

وإنّ الآية الكريمة الأخيرة فى السّورة الكريمة تعمّق هذه المعاني فإلى .

---

(١) سورة فاطر ١٨ . (٢) سورة النّساء ٥٩ .

الآيـــة رقـــم (١٦٥)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى جعلكـم خلائـف الأرضِ ورفـع بعضكـم فـوق بعـضٍ درجاتٍ ليبلوكم فيما آتاكم . إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

إنّ الخلائف جمع خليفة[١]

وإنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ وهو الّذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ تشـير إلى الحياة الأولى دار الفناء . فالله سبحانه وتعالى هو وحـده لا شـريك لـه الّـذى جعـل بعضنا يخلف بعضنا الآخر . وفى هذا المعنى ذاته جاء قوله عـزّ مـن قـائل فـى سـورة فاطر[٢] : ﴿ هو الّذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ وقد عمّق هذا المعنى مثل قوله عزّ من قائل فى سورة يونس[٣] : ﴿ ثمّ جعلنـاكم خلائـف فـى الأرض مـن بعدهـم لننظر كيف تعملون ﴾ والسّعيد من وُعِظ بغيره .

وإنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجاتٍ ليبلوكم فيمـا آتاكم ﴾ تشير إلى الإيمان بشقّيه ، شقّ الشّكر فى حقّ الغنيّ الشّاكر ، ويلحق بالغنيّ كلُّ ذى نعمة ، وشقّ الصّبر فى حقّ الفقير الصّابر ، ويلحق بالفقير كلّ ذى نقمـة . إنّ الشّكور والصّبور بإذن الله تعالى فى الجنّة . وإنّ الشّكر ذاتـه نـوعٌ مـن الصّـبر ، فإنّ الصّبر على ثلاثة أنواع ، صبرٌ على البلاء وصبرٌ على الطّاعة وصبرٌ عن المعصية . إنّ الجميع محلّ ابتلاءٍ من الله تعالى فيما آتاهم من خيرٍ أو شرّ .

وتختم الآية الكريمة والسّورة الكريمـة بـالقول : ﴿ إنّ ربّـك سـريع العقـاب وإنّـه لغفورٌ رحيم ﴾ ومن البيّن الحظّ الأكبر للغفران والرّحمة من التّوكيد ، ممّا يعمّق رحمة الله الواسعة ، وممّا يتمشّى مع الحديث النّبويّ الشّريف : لمّـا خلـق الله الخلـق كتـب فى كتابٍ فهو عنده فوق العرش : إنّ رحمتى تغلب غضبى[٤] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٨٤ .
(٢) الآية ٣٩ .
(٣) الآية ١٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٠ .